

تفسير ابن كثير

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا
وَأَتَاكُمْ مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام ، فيما ذكر به قومه نعم الله عليهم وآلاءه لديهم ، في جمعه لهم خير الدنيا والآخرة لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة ، فقال تعالى : (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ) أي : كلما هلك نبي قام فيكم نبي ، من لدن أيكم إبراهيم وإلى من بعده . وكذلك كانوا ، لا يزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله ويحذرون نقمته ، حتى ختموا بعيسى عليه السلام ، ثم أوحى الله [تعالى] إلى خاتم الرسل والأنبياء على الإطلاق محمد بن عبد الله المنسوب إلى إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام ، وهو أشرف من كل من تقدمه منهم صلى الله عليه وسلم . وقوله : (وجعلكم ملوكا) قال عبد الرزاق عن الثوري عن منصور عن الحكم أو غيره ، عن ابن عباس في قوله : (وجعلكم ملوكا) قال : الخادم والمرأة والبيت . وروى الحاكم في مستدركه ، من حديث الثوري أيضا ، عن

الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال : المرأة والخادم (وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين) قال : الذين هم بين ظهرائهم يومئذ ، ثم قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وقال ميمون بن مهران عن ابن عباس قال : كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له الزوجة والخادم والدار سمي ملكا . وقال ابن جرير : حدثنا يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب أنبأنا أبو هانئ ؛ أنه سمع أبا عبد الرحمن الحبلي يقول : سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص وسأله رجل فقال : ألسنا من فقراء المهاجرين ؟ فقال عبد الله : ألك امرأة تأوي إليها ؟ قال : نعم . قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال : نعم . قال : فأنت من الأغنياء . فقال : إن لي خادما . قال فأنت من الملوك . وقال الحسن البصري : هل الملك إلا مركب وخادم ودار ؟ رواه ابن جرير . ثم روي عن منصور والحكم ومجاهد وسفيان الثوري نحوه من هذا . وحكاه ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران . وقال ابن شاذب : كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له منزل وخادم ، واستؤذن عليه ، فهو ملك . وقال قتادة : كانوا أول من ملك الخدم . وقال السدي في قوله : (وجعلكم ملوكا) قال : يملك الرجل منكم نفسه وأهله وماله . رواه ابن أبي حاتم . وقال ابن أبي حاتم : ذكر عن ابن

لهيعة عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة ، كتب ملكا " . وهذا حديث غريب من هذا الوجه . وقال ابن جرير : حدثنا الزبير بن بكار حدثنا أبو ضمرة أنس بن عياض [قال] سمعت زيد بن أسلم يقول : (وجعلكم ملوكا) فلا أعلم إلا أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كان له بيت وخادم فهو ملك " . وهذا مرسل غريب . وقال مالك : بيت وخادم وزوجة . وقد ورد في الحديث : " من أصبح منكم معافى في جسده ، آمنا في سربه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذاقها " . وقوله : (وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين) يعني عالمي زمانكم ، فكأنهم كانوا أشرف الناس في زمانهم ، من اليونان والقبط وسائر أصناف بني آدم كما قال : (ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين) [الجاثية : 16] وقال تعالى إخبارا عن موسى لما قالوا : (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . قال أغير الله أبغىكم إلها وهو فضلكم على العالمين) [الأعراف : 138 - 140] والمقصود : أنهم كانوا أفضل

أهل زمانهم ، وإلا فهذه الأمة أشرف منهم ، وأفضل عند الله ، وأكمل شريعة ، وأقوم منهاجا ، وأكرم نبيا ، وأعظم ملكا ، وأغزر أرزاقا ، وأكثر أموالا وأولادا ، وأوسع مملكة ، وأدوم عزا ، قال الله [عز وجل] (كنتم خير أمة أخرجت للناس) [آل عمران : 110] وقال (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) [البقرة : 143]

وقد ذكرنا الأحاديث المتواترة في فضل هذه الأمة وشرفها وكرمها عند الله ، عند قوله عز وجل : (كنتم خير أمة أخرجت للناس) من سورة آل عمران . وروى ابن جرير عن ابن عباس وأبي مالك وسعيد بن جبیر أنهم قالوا في قوله : (وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين) يعني : أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكأنهم أرادوا أن هذا الخطاب في قوله : (وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين) مع هذه الأمة . والجمهور على أنه خطاب من موسى لقومه وهو محمول على عالمي زمانهم كما قدمنا . وقيل : المراد : (وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين) يعني بذلك : ما كان تعالى نزله عليهم من المن والسلوى ، وتظللهم من الغمام وغير ذلك ، مما كان تعالى يخصصهم به من خوارق العادات ، فالله أعلم .